اخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة (١٨٧٩-١٩٠٧)

ا.د.صبري فالح الحمدي

الجامعة المستنصرية كلية التربية–قسم التاريخ

خلاصة البحث

يحتوي البحث على دراسة جديدة عن جغرافية الحجاز واوضاعه الاقتصادية لا سيما التجارية، ونصوص تتضمن بعض جوانب الحياة الاجتماعية لسكانه، مع الاشارة لأبرز معالم الحجاز العمرانية، وتأتي اهمية البحث بوصف معلوماته قد استقت من مصادر روسية منشورة، كان قد دونها رحالة وتجار روس واخرين جاؤوا الى المنطقة لأغراض مختلفة ومعظمهم قد زاروا مدن الحجاز وتعاملوا مع السكان، فجاء ما ذكروه غني في معلوماته الوفيرة من خلال وصفهم لمعالم المنطقة الطبيعية ومظاهر الحياة المعيشية والاجتماعية في تلك المدة الزمنية من تاريخ الجزيرة العربية.

Abstract

This research represents a new study about Al-Hejaz's geography and economical situations especially trade, and also texts include some of the local people's social life aspects, and also the architectural landmarks. The importance of this research is that it's based on published Russian resources, that were written by Russian merchants, travelers and others that came to the region for different reasons, and most of them visited Al-Hejaz cities and dealt with the local people, and what they wrote was rich in so much details that describes the region's nature, and the social life's appearances in that era in the history of Arabian peninsula.

-المقدمة:

لا تزال بعض جوانب تأريخ الحجاز، لاسيما الاقتصادية والاجتماعية لم تبحث بشكل دراسات من قبل المختصين في الدراسات التأريخية، ومن الواضح ان الحصول على مصادر جديدة، لاسيما الوثائقية منها، من دول اوربية كروسيا والمانيا وفرنسا، فضلا عن الدولة العثمانية، سيفتح الباب امام الباحثين في تناول الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز، نظرا لوجود معلومات قيمة عن الاخير في ارشيفات الوثائق التي تقدر بالملايين في خزائنها عن البلاد العربية، وستكون خير عون لنا في الكشف عن ماهية تلك الوثائق الغنية بمعلومات غزيرة عن تأريخ المنطقة، فضلا عن المصادر الاخرى الساندة مابين كتب وبحوث منشورة في الدوريات، وهي دعوة للدارسين والاوساط الاكاديمية الرسمية في ارسال طلبة الدراسات العليا في تلك البلدان لاكمال تحصيلهم في تلك البلدان، للاتيان بدراسات تحمل طابع الابتكار، والتخلي عن اطار ما موجود اليوم في تناول موضوعات تفتقد بعضها الى مثل هذه الصفات، ويحمل بعضها طابع التكرار، وربما الاجترار في الموضوعات التأريخية.

لذلك فان الخوض في تأريخ الحجاز بالاعتماد على ما دونه الرحالة وما تضمه الوثائق الروسية المنشورة المعربة، سيأتي بالجديد ويعد اضافة علمية الى ما موجود من تلك الدراسات، التي اعتمدت في الغالب على مصادر محلية وعربية وبريطانية فحسب، ولم تتخط ما موجود من سجلات محفوظة في ارشيفات روسيا في بطرسبرج وموسكو، التي سيجد القارئ الكريم بما دون في وثائقها ، وما سطره رحالتها، الكم الوفير من التقارير والمراسلات المتبادلة بين التجار والرحالة والقناصل الروس والحكومة الروسية، المحتوية على وصف لجغرافية الحجاز وسكانه ومعالم حياته الاجتماعية، فضلا عن مكانة الحجاز الدينية، التي تضم الحرمين الشريفين، ويفد إليها المسلمون من البلاد العربية والاسلامية لاداء فريضة الحج، التي يشهد نشاطا تجاريا يمارسه الوافدون الى الحجاز مع السكان المحليين، حاول البحث الافادة من نصوصه في تعزيز المحتوى العلمي للدراسة، ومحاولة الاحاطة في تأريخ المنطقة ذات الاهمية الدينية والتجارية بوصفها تعد احد مناطق الجزيرة العربية، التي اسهمت وظائفها عبر سنوات التأريخ الحديث والمعاصر في احداث تلك التطورات.

-اخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة حتى عام ١٩١٤:

على الرغم من وجود معارضة بريطانية للتغلغل الروسي نحو الحجاز، الا ان ذلك لم يقف حائلا دون وجود اهتمام روسي بالمنطقة[١]، لاهميتها الدينية بوصفها تحتضن الحرمين الشريفين، فضلا عن اهميتها التجارية المتأتية من اطلالتها على البحر الاحمر عبر ميناء جدة، وقد زودتنا الوثائق الروسية في القرن التاسع عشر بمعلومات قيمة عن حكم اشراف[٢] الحجاز ومواردهم المالية، وطبيعة علاقتهم بالدولة العثمانية، نوردها على النحو الآتي:" وتبين عائدات شريف مكة

اساليب اثراء الوجهاء من حكام الواحات فقد كانت الرسوم الجمركية في جدة تعود إليه باكبر المداخيل، وكان يشارك في التجارة المربحة التي تمر عبر هذه المدينة، كما كان يمتلك سفن بحرية ويبيع المواد الغذائية الى الحجاج(٣)، وكان يستحوذ على قسم من النقود التي تأتي من الاستانة الى مكة بمثابة هدية من السلطان العثماني لاهالي مكة المكرمة، وترد الى خزينة الشريف عائدات الملكية العقارية من الطائف والواحات الاخرى، ومن الدور العائدة لها، ويدفع السلطان للاشراف مبالغ كبيرة لقاء مرور قوافل الحجاج العثمانيين الى مكة، وكان وجهاء البدو يستلمون مدفوعات تحددها الاعراف لقاء حماية الضياع والباعة المتجولين، وظلت السلطة في مكة بايدي عوائل الاشراف المتنافسة التي كانت تبعث الى والي مصر والسلطان العثماني نقودا وهدايا ثمينة، الا ان مكة كانت مدينة متميزة تعيش على الحج والتبرعات الخيرية من العالم الاسلامي، وكان السلاطين والمسلمون الوجهاء يتبرعون بالاموال لترميم الكعبة والمساجد والانفاق عليها وشق القنوات، ولم يستطع العثمانيون ان يقيموا سيطرتهم المباشرة عليها"(٤).

ونظرا لاحتضان الحجاز للاماكن المقدسة التي يؤمها المسلمون سنويا لاداء فريضة الحج من بلدان عدة، فقد وثق بعض الحجاج الروس مشاهداتهم عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز في عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر التي وضح جوانب منها" سليم عزي سلطانوف" الذي حج عام ١٨٩٣، وهناك المعلومات التي اوردها الكابتن "عبد العزيز دافلتشين" الذي كان قد ادى فريضة الحج عام ١٨٩٤، عن:" سوء معاملة الجنود العثمانيين للحجاج، الذين كانوا يتعرضون للنهب والسلب، وعدم اهتمام السلطات العثمانية(٥) واشراف الحجاز بنظافة(٦) مكة المكرمة والمدينة المنورة، التي تكثر فيها تجارة الرقيق(٧)

(العبيد)، كما قدم لنا " سلطانوف" وصفا عن رحلته الى الحجاز بحرا، ثم وصوله المدينة المنورة، وما شاهده في المسجد النبوي وشوارع المدينة ومنازلها، بعدها قدم عرضا عن مساحة مكة المكرمة التي قدرها بـــ(٤) كيلومترات مربعة تحيطها الجبال، وزودنا بمعلومات شيقة عن اسواقها والبضائع التي يتعامل بها السكان في مجال التجارة، واشارته الى وجود مكاتب للبريد وصيدليات ومستشفيات وثكنات (عسكرية) تتسع لحوالي (٢٠٠) جندي ومطبعة وسوقا للكتب، وطرق المواصلات هي الدواب والعربات...، ويختم حديثه بالقول ان الحج ساعد على احياء شعلة الاسلام في الامبراطورية الروسية"(٨).

وفي عام ١٨٩٨ اشارت المصادر الروسية الى تجارة العبيد في الحجاز على وفق التقرير الذي نشره الكابتن "دافلتشين" الذي وصل الحجاز في تلك السنة، ومما جاء في تقريره الآتي:" ان العبيد الذين يباعون في الحجاز ينتمون الى قوميتين لاغيرهما وهما: الزنوج السود للغاية وهم من السودان ويعتبرون افضل العمال، ويسعى الناس لامتلاكهم رجالا ونساءا على السواء لاغراض العمل فقط، واما العبيد الاكثر بياضا الاحباش، وفي مكة والمدينة لا توجد بيت لا يضم عبدا او جارية من الذين يقومون بجميع الاعمال المنزلية...، وتعتمد القبائل الرحالة في الواقع على جهود العبيد في اعمالها الشاقة"(٩).

ويقدم لنا الرحالة الروسي " بي ستينين" الذي كان عضوا في الجمعية الجغرافية الاميريالية في سان بطرسبرج اهم ملاحظاته التي دونها عن جغرافية مدن الحجاز وسكانه والخدمات المحلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على النحو الآتي:" مكة(١٠) من احسن المدن في الامبراطورية العثمانية، يبلغ عدد سكانها (١٢٠,٠٠٠) نسمة حسب الاحصائيات الرسمية، غير ان هذا العدد مغالي فيه بقدر مرة ونصف المرة، ويشكل العرب ثلاثة اخماس مجموع السكان، وخمس

السكان "ملايو" الاصل، هناك هنود واتراك واحباش وبعض الايرانيين والتتر والقرغيز (من آسيا الوسطى) يحكم المدينة شريف مكة وهو يدعي انه ينتسب للرسول (ص)...، اما جدة[١١] فتقع على مسافة (٨) فرست[١٢] من مكة نحو الساحل ، نفوسها (٣٠,٠٠٠) نسمة، وهي تعد اكبر مدينة على البحر الاحمر، ويزورها اكثر من الف سفينة سنويا بما فيها (٢٥٠) باخرة...، وتعتبر المدينة المنورة[١٣] هي ثاني اكبر مدينة في الحجاز، تمثل واديا محاطا بجبل احد من الشمال وخيبر من الجنوب، وتحيط المدينة اسوار قوية في اركانها ابراج، ولها ابراج، ولها اربعة ابواب، وتمتد المصابيح بطول الشارع العريض حيث تقع القصور والمنازل على جانبه...، توجد المستشفى على ارض الاوقاف في المدينة وتمول من تبرعات السلطان (العثماني) عبد المجيد (ابن السلطان محمود) ١٨٣٩-١٨٦١ يوجد بها طبيب واحد مع صيدلي، ويتكون المستشفى[١٤] من بيت ذي ثلاثة طوابق وبه (٣٠) برجا، فضلا عن وصف للمدارس والخدمات وغيرها"[١٥].

ومن الجدير بالذكر ان المعلومات التي دونها الرحالة الروس الى مدن الحجاز شكلت مصدرا ذا اهمية في بيان تاريخ الحجاز واوضاع سكانه المعيشية والاجتماعية، لاسيما في موسم الحج[١٦]، تأتي في مقدمتها رحلة العقيد " عبد العزيز دولتشين"[١٧] الى الحجاز عام ١٨٩٨ التي ترجمت الى اللغة العربية، فقد نقل ما شاهده من نواحي عمرانية عن المدينة المنورة بقوله:" اليوم ركعنا امام قبر النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) في الحرم الشريف، هنا مبني حسب احدث منجزات علم الهندسة، ويحدث انطباعا عميقا، الاضرحة محاطة بشعيرية حديدية كثيفة والمداخن نفسها مغطاة بديباج غال، وفي وسط جنينة الحضرة الصغيرة وبقربها بئر فاطمة، المدينة تطوق الحرم الشريف لصقا، لاجل النساء مكان خاص مسيج، وفي ٨ ايار رحلنا اليوم منذ الصباح نحو (٥) فرستات[١٨] الى قبر حمزة (عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم) وهو من انصار النبي (ص) وقد لقي

مصرعه في هذا المكان حيث شن المكيون الكفار هجوما، ثم عدنا في ساعة متأخرة"[١٩].

ويزودنا الرحالة دولتشين بمعلومات عن الحياة الاجتماعية[٢٠] لسكان الحجاز مبينا نوعية ملابسهم رجالا ونساءا، لاسيما وانه كان شاهد عيان لتلك المظاهر في موسم الحج، واليكم نص ما ذكره:" البدو في قمصان مقلمة سوداء (عباءات) مدججين بالسلاح على رؤوسهم المناديل (العقالات) حفاة...، وجوههم صغيرة، عيونهم حية جدا، الجميع مسمر، شيوخ البدو والملتزمون بتقدير الجمال لاجل الحج يجلسون بمهابة في المقاهي، اليوم يوجد عدد كبير من السوريين وهم حسنوا السلاح والالبسة، وهناك ايضا مصريون مع نساءهم، وجميعهم طويلوا القامة، نحيلون، في شملات سوداء طويلة من قماش خفيف، على وجوه الرجال والنساء وفرة من الوشم، وهناك ايضا كثيرون من الفرس وهم بمعظمهم يعودون من هنا عبر السهب الى البصرة وكربلاء ، ينقلهم بدو تلك الانحاء...[٢١]".

ولعل من دلالات اهمية الوثائق الروسية المنشورة بوصفها مصدرا لتاريخ الحجاز الحديث، ما تضمنته تلك الوثائق المستمدة محتوياتها مما دونه الرحالة والبحارة والقناصل الروس الذين وفدوا الى الحجاز لاغراض متعددة، من ملاحظات بشأن سكان الحجاز من الحضر والبدو، كما تطرقت الى سكان الحجاز، وهو الامر الذي نجده مذكورا في رحلة "دولتشين" في عام ١٨٩٨-١٨٩٩:" يتألف سكان الحجاز من مختلف قبائل الحجاز[٢٢]، وهناك كثيرون من الزنوج والاحباش الذين صاروا بينهم بوصفهم عبيدا، مجمل عدد السكان بين (٧٠٠-٨٠٠) ألف نسمة، ينقسم البدو الى كثرة من القبائل التي يشرف عل كل منها شيخها والتي تشغل كل منها منطقة معينة للترحل، البدو الرحل يربون الماشية ويتعاطون الزراعة ايضا اذا سمحت الظروف، اثناء اشهر الحج ينصرف كثيرون منهم الى

نقل الحجاج وامتعتهم، وسكان السواحل بوصفهم بحارة ماهرين يمارسون النقل الساحلي على زوارقهم الشراعية، كما يمارسون صيد السمك واستخراج المرجان واللؤلؤ والصدف والمحار...، يحمل البدو دائما الاسلحة، في اليدين بندقية شطف (بقداحة) او بندقية بفتيل او رمح، على الكتف او على الظهر يتدلى سيف ذو حد واحد او سيف ذو حدين على حزام جلدي فرد وخنجر ولوازم معدينة مختلفة لحفظ البارود والرصاص، ترتدي المرأة قميصا اسود طويلا، ومنديلا على الرأس من اللون نفسه، وتغطي وجهها ادنى من خط العينين بقطعة من القماش الاسود، ومسكن البدو عبارة عن نموذج خفيف جدا من خيمة من القماش الاسود نفسه الذي يخيطون منه العباءة، المواد الغذائية الرئيسية هي منتوجات تربية المواشي والبلح، وعند عرب السواحل السمك، الغذاء الاكثر استعمالا اللبن، الطعام اللذيذ هو التمر مع السمنة"(٢٣).

وكانت "لدولتشين" انطباعات اخرى عما شاهده من انواع التجارة والحرف التي يزاولها سكان الحجاز مع تفاصيل كثيرة يمكن ان تكون مادة لبحوث علمية تتناول جوانب اجتماعية عن تاريخ الحجاز والتي لم تدرس بعد ، ومما قاله الآتي:" سكان السواحل يبيعون من التجار الكمية التافهة من اللآلئ والمرجان والصدف وعظم السلاحف وما الى ذلك التي يستخرجونها من البحر، واصحاب البساتين الواقعة على طرق الحج الكبيرة يتعاطون بيع الحناء وبلسم والفلنسك والتمر من الحجاج، والتجارة الباقية كلها تتلخص في تزويد المدن بالمحروقات والخضروات والمؤن وغير ذلك، وفي الانحاء التي تتواجد فيها البساتين يجدلون ببالغ التفنن من اوراق النخيل الحصائر والمراوح والحبال، يصنعون اقمشة صوفية سميكة لاجل المعاطف والخيام والاكياس، ويحيكون رحالا كبيرة مزدانة بكثرة من الشراشيب

لاجل الهواجن، وهناك حرفيون حاذقون يضعون الاسلحة وشتى الحلي الفضية، ولجميع هذه الاشياء تصريف محلي حصرا"[٢٤].

ولم تغب عن ذاكرة "دولتشين" طبيعة الاوضاع السياسية في الحجاز خلال هذه المدة من تأريخه، لاسيما العلاقة[٢٥] بين الدولة العثمانية والحجاز ودور العثمانيين في توفير الامن على طرق الحج، اذ لخصها لنا على النحو الآتي:" ان سلطة الحكومة العثمانية لم ترتكز الا على القوة المسلحة ولا تبتديء الا في النقاط التي ترابط فيها القوات المسلحة، وهذا يعني ان الاتراك لا يملكون غير المدن، وكذلك بنحو ما الطريق بين مكة وجدة التي تحميها مخافر متعددة، لكن سلطتهم[٢٦] في هذه النقاط ايضا لا تحظى بالمكانة اللازمة، وفي غضون اربعة اشهر من امتلاك الحجاز لم يقم الاتراك اية صلات بينهم وبين السكان المحليين، والعلاقات بين الطرفين لا تزال علاقات عداء وعدم ثقة، وجميع الاتراك الذين تسنى لي ان اتحدث معهم كانوا يضمرون خوفا وكرها خاصا حيال البدو...، كانت السطات الادارية تتميز في غالب الاحوال باعمال الابتزاز والاضطهاد، اما اعمال العساكر فقد كانت على الدوام في منتهى التردد، ولذا لا يكن البدو حيالها ما يلزم من الخوف والاحترام"[٢٧].

اما بيوت الحجاز والمواد التي بنيت منها، واجناس سكان مكة المكرمة فكان لها نصيب في تقرير الرحالة "دولتشين" في عامي ١٨٩٨-١٨٩٩ التي سلط الضوء عليها بما يأتي:" ان البيوت في مكة مبنية في المعتاد من ثلاثة طوابق مع انه توجد كذلك بيوت من (٤) او (٥) طوابق، الهندسة المعمارية اصلية جدا، جميع الجدران تحفل بصنوف من نوافذ تسمى "مشربية" اما مادة البناء فهي الحجر الاسود والآجر المحروق المرصوصان في الاغلب على الطين، وكذلك الخشب

المستورد من جزر الزوند والخشب الروسي (الالواح) المستورد من القسطنطينية، والبيوت مبني الواحد يلصق الآخر دون فتحات، الطابق الاسفل ليس معدا في المعتاد للسكن ويستعملونه لاجل ايداع الاشياء الضخمة، والطوابق العليا تتشكل من شقات غير كبيرة، كل شقة من غرفتين او ثلاث ومعزولة تماما عن الشقات الاخرى ومزودة بالمرافق اللازمة...، وسكان مكة الدائميين فهم خليط من ابناء جميع القوميات التي تدين بالاسلام، وعدا السكان المحليين العرب الذين يؤلفون زهاء ثلاث اخماس عدد السكان الاجمالي، يوجد هنا عدد كبير من الماليزيين الزنوج والاحباش والمصريين والهنود والعرب والافارقة، وكذلك الاتراك والفرس، وينتمي قليلون الى سكان البلد الاصليين معظمهم قادمون من الخارج واستعربوا كليا مع مر الزمن...، ثم تحدث "دولتشين" عن الطائف[٢٨] فذكر انها" تقع على السفح الشرقي من جبل القوى، تحيط بها بساتين كثيرة، يخص قسم منها سكان المدينة، وقسم آخر بدو الضواحي ، وهي تشبه مكة من حيث الشوارع ومعمارية البيوت، وعدد السكان الدائميين فيها الف وخمسمائة...، اما المدينة المنورة فهي الثانية من حيث الاهمية في العالم الاسلامي، وهي مطوقة بسور حجري تنتصب ابراج في زواياه وقرب بواباته الاربع، يبلغ عدد سكانها بموجب المصادر العثمانية[٢٩] (٨٠,٠٠٠) نسمة، يتألفون من عناصر مختلفة..."[٣٠].

واستكمل "دولتشين" وصفه لمدن الحجاز بالحديث عن ينبع التي تعد من موانيء الحجاز وهي تشهد حركة نقل تجارية واسعة وحركة استيراد للبضائع القادمة من الموانيء الواقعة على الساحل الغربي من البحر الاحمر، فضلا عن اتخاذ الحجاج لها مخازن مؤجرة للبضائع الثقيلة التي لا يمكن نقلها بسرعة او الاشياء الثمينة التي لا يمكن المغامرة بحملها[٣١] بقوله:" وهناك ينبع وهي الاقرب

مرفأ الى المدينة المنورة، بيوتها من الهندسة المعمارية المتواجدة في مكة، ولكن مع فارق وحيد هو ان جميع الطوابق السفلى في ينبع مأهولة، ويعيش (٥٠٠٠) نسمة من سكانها الدائميين، وشغلهم في زمن الحج ممارسة التجارة اما في الوقت العادي فيتعاطون صيد السمك والملاحة الساحلية وما الى ذلك، تنطلق السفن من ينبع الى مرافيء البحر الاحمر الاخرى بما فيها السويس والحديدة...(اليمني)، وجدة تعتبر اهم مرفأ على ساحل البحر الاحمر، وعبره تمر حركة الحجاج الرئيسية، يبلغ عدد سكانها (٢٠٠٠٠) نسمة، بينهم زهاء (٥٠) اوربيا، والسكان يتعاطون على الاغلب التجارة ثم صيد السمك واستخراج اللآلئ و المرجانات من البحر والملاحة الساحلية وبناء السفن"[٣٢].

ونظرا لكثرة الحجاج الروس الوافدين الى الحجاز لزيارة الاماكن المقدسة واداء فريضة الحج، فقد اشارت مصادر روسية لعام ١٨٩٨ الى ان " عدد الحجاج عام ١٨٩٨ بلغ حوالي (٨,٠٠٠) نسمة، ويشكل العرب نحو ثلاثة اخماس هذا العدد، ومعظم سكان مكة من الوافدين الذين استوطنوها، واهال مكة كرماء ويستضيفون الحجاج، وقلما نجد منهم من يعرف القراءة والكتابة يعمل اكثرهم في خدمة الحجاج كمرشدين ومطوفين...، وفي عام ١٨٩٨ قدم الى مكة (٤٥٠) حاجا روسيا اغلبهم من كبار السن ومعظمهم من الاغنياء والملاكين ورجال الدين، وتدوم الرحلة نحو سنتين لصعوبة المواصلات"[٣٣].

ومن الضروري الاشارة الى تردد اسم الحجاز في الاوساط الروسية، لا سيما في موسم الحج، ومنها الرحلة التي قام بها "نيكوسكي" القائم بالاعمال الروسي في جدة عام ١٩٠٤ الى الحجاز، وتسليطه الضوء على الحجاج الوافدين، والنشاط التجاري هناك في موسم الحج، واليكم نص ما دونه:" انه يزور مكة في

السنة الواحدة عدد يتراوح بين ثمانين ألف ومائتي ألف حاج، والاندونيسيون هم اغنى هؤلاء الحجاج، ويليهم الحجاج القادمون من روسيا ومصر، واما افقر الحجاج فهم الهنود...، وقد وصل ما مجموعه سبع وستين ألف شخص في موسم الحج لسنة ١٩٠٤-١٩٠٥ عن طريق ميناء جدة وينبع، اما مجموع العام للحجاج الذين زاروا مكة في هذه السنة فيقدر بين مائة وخمسين ألف ومائتي الف شخص، وتعتبر هذه العناصر الوافدة جميعها مستهلكا كبيرا للبضائع والسلع على الرغم من ان كثير من الحجاج يجلبون معهم الى مكة ايضا بضائعهم الخاصة لبيعها هناك"[٣٤].

ونظرا لاهمية جدة التجاري على البحر الاحمر بوصفها المنفذ البحري فضلا عن ينبع البحر لبلاد الحجاز، فقد ورد اسمها في التقارير التي كان يرسلها مبعوثوا الشركة الروسية للملاحة والتجارة في سان بطرسبرج الى وزارة الخارجية في موسكو، وما يصدر من الشركة من تعليمات بشأن مسار سفنها واماكن تحميلها وتفريغها للبضائع المختلفة، فضلا عن نقلها لحجاج بيت الله الحرام، بعد اداءهم فريضة الحج والعودة الى اوطانهم، وفيما يأتي ما جاء في احدى مراسلات الشركة المذكورة:

الوثيقة : صفحة ٥٨ من الاضبارة   رقم٤٢٩/ب.ل٧

الشركة الروسية للملاحة والتجارة

اوديسا ٣ شباط ١٩٠٧م

رقم الختم ٣٥٩

تاريخ الختم ٩ شباط ١٩٠٧م

ادارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة

يتشرف المكتب الرئيسي بابلاغ الادارة بان سفينة "الفرات" والتي قامت بالرحلة الاولى على الخط الفارسي من اوديسا غادرت في الاول من هذا الشهر جدة في طريقها الى البصرة وقد اخذت من هذا الميناء حوالي ١٠٠٠ حاج الى البحرين...، وقد كانت اجرة النقل البحري ٦٤,٠٠٠ فرنك.

وبما ان الدخول الى جزر البحرين لم ينظر فيه في عقدنا مع الحكومة، لذا استنادا الى البند الثالث من العقد وحسب رأي المكتب الرئيسي انه بما ان هذه الجزيرة (البحرين) تقع على الخليج فان دخول السفن إليها لا يحتاج الى طلب خاص، وانما يكفي ان يبلغ قسم الملاحة والتجارة الامر[٣٥].

توقيع المدير

توقيع رئيس القسم التجاري

-الخاتمة:

يمكننا القول بتوصل البحث الى النتائج الآتية:

١-تميزت الدراسة باضافتها معلومات جديدة عن جغرافية الحجاز ووصف لمدنه ومعالمه العمرانية، وتفاصيل عن السكان وحرفهم، ومظاهر لباسهم وحياتهم اليومية، عبر المشاهدات التي وثق الروس انطباعاتهم بشأنها حينما زاروا الحجاز في اوقات متعددة، سواء كانوا تجارا ورحالة او مبعوثين دبلوماسيين جاءوا الى هناك لاداء مهمات معينة، يمكن ان تساعد الباحثين والدارسين في التصدي لتأريخ الحجاز على وفق رؤية علمية ثاقبة تفيد من النصوص التي احتوت تلك الملاحظات والآراء التي دونها الروس عبر رحلاتهم تلك الى مدن الحجاز، وهي

بالتأكيد ستكون عاملا مساعدا في استكمال او البدء في دراسات جديدة تغطي جوانب من تأريخ الحجاز الاقتصادي والاجتماعي خاصة.

٢-اتضح من البحث متابعة الاوساط الروسية للتطورات السياسية في الحجاز، ولاسيما الاوضاع الداخلية هناك والعلاقة بين حكامها من الاشراف والدولة العثمانية، والتوصل الى نتائج طيبة في تحليل طبيعة تلك العلاقة ومعرفة العوامل المؤثرة في مسيرتها، والاطلاع على المعونات المالية التي تقدمها الدولة للاشراف لاجل توفير الامن لقوافل الحج المتجهة الى الاماكن المقدسة، فضلا عن العمل باتجاه استقرار الحجاز، ولا سيما في موسم الحج، وذلك لاهميته السياسية والدينية للسلطة العثمانية، فضلا عن آثاره المالية على معيشة السكان في مدن الحجاز المختلفة.

٣-استخلصت الدراسة في صفحاتها المتواضعة، دور التجارة في النشاط الاقتصادي لسكان الحجاز الذين هم من اجناس متعددة، ويعود الفضل للمصادر الروسية في تزويدنا بنصوص قيمة اغنت دراستنا التأريخية بشأن الحجاز عبر الوثائق المنشورة وكتب الرحلات، والبحوث المنشورة، فضلا عن الكتب الموضحة والمكملة لمستلزمات البحث في هوامشه التعريفية، والحصول على احصائيات عن البضائع المتبادلة في التجارة واقيامها والاماكن القادمة منها والمصدرة إليها، كما قدمت تلك المصادر معلومات لا غنى عنها لمن يتصدى لتناول الجوانب الاجتماعية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الاشارة الى الخدمات الصحية، والمدارس وغيرها، مما نحن بحاجة الى معرفة المزيد من نواحي حياة السكان في الحجاز، ولتغطية مظاهر اخرى كانت معلوماتنا عنها قليلة، لتسهم هذه المصادر وتشكل روافد نافعة لاغناء دراساتنا التأريخية عن الحجاز ذات المكانة الدينية لدى العرب والمسلمين.

الهوامش

١ – عينت روسيا قنصلا لها في الحجاز للمرة الاولى عام ١٨٧٩ وكانت لديها الرغبة بتعزيز نفوذها في الجزيرة العربية لاعتبارات سياسية وتجارية ، واصرار الروس في عدم التسليم بان المنطقة في عداد مناطق النفوذ البريطاني. ناصر زيدان، دور روسيا في الشرق الاوسط وشمال افريقيا، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣، ص٦٤.

٢ – لمزيد من التفاصيل ينظر: صبري فالح الحمدي، اشراف الحجاز في القرن الثامن عشر، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.

٣ – اشارت مصادر تأريخية الى دفع الحجاج القادمين لاداء فريضة الحج الى الحجاز رسوما لقاء دخولهم الحرمين الشريفين. اقبال، سراج الحاج في احوال الحجاز ويثرب والعراق، مخطوط، المركز الوطني للمخطوطات، تحت رقم (١٢٠٩٠) الورقة ٢.

٤– ارشيف السياسة الخارجية الروسية، ديوان ١٨١٢، الاضبارة ٢٢٨٢، ص١٢٨، نقلا عن: اليكسي فاسيلييف، تأريخ العربية السعودية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١٠، ص٦١–٧٨.

٥ – اوجدت الدولة العثمانية حكما مشتركا لها في الحجاز في تعيينها لوالي جدة، الذي كان يشارك شريف الحجاز الادارة والحكم والتصرف بالاموال المتأتية من الرسوم المفروضة على البضائع والتجار. لمزيد من المعلومات ينظر: جيرالد دي غوري، حكام مكة، ترجمة رزق الله بطرس، دار الوراق، لندن، ٢٠١٠، ص٣١٧–٣١٩.

٦– تشير المصادر العثمانية الى اوضاع الحجاز الداخلية بالقول ان الامن والنظام كان مفقودا في اغلب الاحيان وقد سئمت الدولة العثمانية من هذه الحالة واكتفت بسبب الحروب التي خاضتها والاحداث الداخلية الاخرى، في الاهتمام ببعض المسائل التي تخصها مثل تأمين الحج، وفيما عدا هذا فانها اتبعت سياسة ترك

الاشراف وشأنهم، مما كان له آثار سلبية على اوضاع الحجاز. اسماعيل حقي جارشلي، اشراف مكة وامرائها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٣، ص٦٠.

٧ - وجدت تجارة العبيد في الحجاز وقد لاقت تشجيعا من قبل اشرافها وبسبب تحريم هذه التجارة عالميا، فقد عزل الشريف محمد بن عون عام ١٨٥٦ بسبب عدم التزامه بمنعها. عماد عبد العزيز يوسف، الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦-١٩١٨، دار الوراق، لندن، ٢٠١١، ص٦١.

٨ - نقلا عن: علي ابا حسين، من العلاقات الثقافية بين روسيا ودول الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد الخامس والثلاثون، السنة الثامنة عشر، يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩، ص١٦-١٩.

٩- ب.م.دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ترجمة وتعليق معروف خزنه دار، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨١، ص٣٣٩.

١٠- لمزيد من التفاصيل عن جغرافية مكة المكرمة وتاريخها ومعالم عمرانها وجوانب اجتماعية وعلمية منها ينظر: احمد السباعي، تاريخ مكة، جـ١-٢، ط٨، مطابع الصفا، الرياض، ١٩٩٩.

١١- لمزيد من التفاصيل ينظر: عبد القدوس الانصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، جـ١، مطابع الروضة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٢- فرست تعني باللغة العربية وحدة قياس الطول، وهو نوع من قياس المسافات البحرية ويعادل (٤,٧) كيلومترا .

١٣- ينظر: محمد كمال جمعة، ماضي جدة ، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثالثة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، سبتمبر (ايلول) ١٩٧٧، ص٢٠٤-٢٠٥.

١٤- اوردت مصادر عثمانية معلومات عن قلة الخدمات الصحية، ففي عام ١٨٩٧ انتشر مرض الطاعون والجدري في الاماكن المقدسة، ولم تتخذ السلطة العثمانية الاحتياطات اللازمة للوقاية من هذه الاوبئة. نجاة عبد القادر الجاسم، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر، ابحاث مهداة من اعضاء هيئة

التدريس بقسم التاريخ الى جامعة الكويت بمناسبة عيدها العاشر، اشراف شاكر مصطفى، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٨، ص٤٣٧.

١٥- تي. ان. لبيدنسكايا، شبه الجزيرة العربية كما وصفها بي ستينين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الثاني والخمسون، السنة السادسة والعشرون، يوليو (تموز) ٢٠٠٧، ص٣٧-٤١.

١٦- اعتمدت مدن الحجاز على التجارة بانواعها ، لاسيما في موسم الحج، التي تشهد ازدهارا ملحوظا. لمزيد ينظر:

-Thomos. E, Marston; Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878, The Shoe String press, (U.S.A,1961),P.4.

١٧- عبد العزيز دولتشين: ولد في روسيا في ٢٤ حزيران ١٨٦١، والده ضابط في الجيش الروسي، تخرج عبد العزيز من مدرسة الامبراطور بافل العسكرية المتميزة في بطرسبرج اواخر القرن التاسع عشر، تعلم اللغات الشرقية، قام بترجمة آيات من القرآن الكريم، اتيحت له الفرصة لزيارة الحجاز وكتب يومياته عن مدنها مع وصف مكة المكرمة والمدينة المنورة من نواحي كثيرة. ينظر: الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨، ص٥-٨.

١٨ - فرستات: جمع فرست وتم تعريفها سلفا.

١٩ - الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩، ص١٠٧.

٢٠ - لمزيد من التفاصيل عن الحياة الاجتماعية في الحجاز ينظر: سنان معروف اغلو، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية الاحوال السياسية والاجتماعية في نجد والحجاز خلال العهد العثماني، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢، ص٦٠-٦٢و ص٨٠-٨٣.

٢١- المصدر نفسه، ص١١٨-١٩.

٢٢- قبائل الحجاز: اهمها حرب التي تسكن بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وهذيل التي كانت منازلها حول مكة، وقبيلة عتيبة التي استقرت غرب السلسلة الجبلية في اطراف الطائف، وثقيف ومنازلها بين مكة المكرمة والطائف، فضلا عن قبائل المطير وسبيع في مناطق الحدود بين الحجاز ونجد، و قبيلة جهينة وتسكن حول بلدة ينبع وضواحيها والبقوم شرق الطائف.

-Douglas, Carruthers; Arabian Adventure, London, 1955, P.21.

-صبري فالح الحمدي، المصدر السابق، ص٢٩.

٢٣- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز، ص١٣٨-١٤٠.

٢٤- المصدر نفسه، ص١٤٣-١٤٤.

٢٥ - لمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين الدولة العثمانية والحجاز اواخر القرن التاسع عشر ينظر: وزارة الثقافة والاعلام، بغداد مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي، الوثائق الارشيفية المعربة من العهد العثماني بتركيا، مج١، ع٥، رقم البحث ٣٨٩٥، دفتر نامه همايون:١٢، تاريخ الوثيقة اوائل رجب ١٢٧٥، ص٢١٢٨-٢١٣٠، محل وجودها، الارشيف العثماني في اسنطبول.

٢٦- شهدت هذه المدة من تاريخ الحجاز تنافسا بين الاشراف للاستحواذ على الحكم، فضلا عن استمرار الخلافات بين الدولة العثمانية واشراف الحجاز، ووجود تداخل بالادارة بين والي جدة العثماني وشريف الحجاز، الامر الذي اضعفت بالتالي من هيبة الدولة العثمانية.

-Saleh Muhammad Al-Amr; Higaz Under Ottoman Rule 1869-1914, Ottoman Vale, the Sharif of Mecca and the Grouth of British Influence, For the Degree of Doctor of Philosohphy at the University of Leeds, Riyad University Publications, 1974, P.60-75.

٢٧- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز، ص١٤٦.

٢٨- لمزيد من التفاصيل عن الطائف ينظر:

-David George Hogarth; Hegaz Before World I, London, 1978, P.46.

٢٩- بعد وصول السلطان العثماني القاهرة عام ١٥١٧ واحتلاله مصر، ارسل شريف مكة بركات بن محمد (١٥١٢-١٥٢٤) ابنه ابو نمي حاملا معه مفاتيح مكة وهدايا الى السلطان الذي رحب به واكرمه فاصبحت االحجاز تابعة للدولة العثمانية.

-Rundall Baker; King Husain and the Kingdom if Hegaz, the Oleander Press, New York, U.S.A., P.2.

٣٠- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز، ص١٧٩ و ص١٨٣-٢٠٣.

31- *Richard F. Burton; Personal Narrative of A pilgrimage to Mecca and Medina, Vol.1, Leipzigg, 1874, P.220-221.*

٣٢- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز، ص٢٢٢-٢٢٥.

٣٣- علي ابا حسين، المصدر السابق، ص١٨٠.

٣٤- ب.م. دانتسيغ، المصدر السابق، ص٣٤٠.

٣٥- الارشيف الروسي التأريخي الحكومي في بطرسبرج، الملف رقم ١٠٧، القائمة رقم ١، الاضبارة رقم ١٧٦٦ سنة ١٩٠٦، الوثيقة صفحة ٥٨ من الاضبارة، الشركة الروسية للملاحة والتجارة، نقلا عن: يافعة يوسف جميل، العلاقات التجارية بين روسيا والخليج العربي من خلال الوثائق التأريخية لعام ١٩٠٦-١٩١٤، مجلة الوثيقة، العدد الثاني والثلاثون، السنة السادسة عشر، يوليو (تموز) ١٩٩٧، ص١٤٤.

المصادر والمراجع

١-المخطوطات:

- اقبال، سراج الحاج في احوال الحجاز ويثرب والعراق، مخطوط، المركز الوطني للمخطوطات، تحت رقم (١٢٠٩٠).

٢-الوثائق الروسية المنشورة:

- الارشيف الروسي التأريخي الحكومي في بطرسبرج، الملف رقم ١٠٧، القائمة رقم ١، الاضبارة رقم ١٧٦٦ سنة ١٩٠٦، الوثيقة صفحة ٥٨ من الاضبارة، الشركة الروسية للملاحة والتجارة، نقلا عن: يافعة يوسف جميل، العلاقات التجارية بين روسيا والخليج العربي من خلال الوثائق التأريخية لعام ١٩٠٦-١٩١٤، مجلة الوثيقة، العدد الثاني والثلاثون، السنة السادسة عشر، يوليو (تموز) ١٩٩٧.

- ارشيف السياسة الخارجية الروسية، ديوان ١٨١٢، الاضبارة ٢٢٨٢، ص١٢٨، نقلا عن: فاسيلييف، اليكسي ، تأريخ العربية السعودية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١٠.

٣-الوثائق العثمانية المنشورة:

-الوثائق الارشيفية المعربة عن العهد العثماني بتركيا، مج١، ع٥، الموجودة في مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام.

٤-الكتب العربية والمعربة:

- الانصاري، عبد القدوس، موسوعة تاريخ مدينة جدة، جـ١، مطابع الروضة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- اغلو، سنان معروف، نجد والحجاز في الوثائق العثمانية الاحوال السياسية والاجتماعية في نجد والحجاز خلال العهد العثماني، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.

- جارشلي، اسماعيل حقي، اشراف مكة وامرائها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٣.

- صبري فالح الحمدي، اشراف الحجاز في القرن الثامن عشر، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.

- دانتسيغ، ب.م، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ترجمة وتعليق معروف خزنه دار، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨١.

- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين الى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨.

- ناصر زيدان، دور روسيا في الشرق الاوسط وشمال افريقيا، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣.

- السباعي، احمد، تاريخ مكة، جـ١-٢، ط٨، مطابع الصفا، الرياض، ١٩٩٩.

- دي غوري، جيرالد، حكام مكة، ترجمة رزق الله بطرس، دار الوراق، لندن، ٢٠١٠.

- يوسف، عماد عبد العزيز، الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦-١٩١٨، دار الوراق، لندن، ٢٠١١.

٥-الكتب الاجنبية:

1- Al-Amr, Saleh Muhammad; Higaz Under Ottoman Rule 1869-1914, Ottoman Vale, the Sharif of Mecca and the Grouth of British Influence For the Degree of Doctor of Philosohphy at the University of Leeds, Riyad University Publications, 1974.

2- Baker, Rundall; King Husain and the Kingdom if Hegaz, the Oleander press, New York, U.S.A.

3- Burton, F. Richard; Personal Narrative of A pilgrimage to Mecca and Medina, Vol.1, Leipzigg, 1874.

4- Carruthers, Douglas; Arabian Adventure, London, 1955.

5- Hogarth , David George; Hegaz Before World I, London, 1978.

6- Marston, E. Thomos; Britain's Imperial Role in the Red Sea Area1800-1878, The Shoe String Press, U.S.A,1961

٦-البحوث المنشورة:

- ابا حسين، علي، من العلاقات الثقافية بين روسيا ودول الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد الخامس والثلاثون، السنة الثامنة عشر، يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩.
- الجاسم، نجاة عبد القادر، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر، ابحاث مهداة من اعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ الى جامعة الكويت بمناسبة عيدها العاشر، اشراف شاكر مصطفى، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٨.
- جمعة، محمد كمال، ماضي جدة ، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثالثة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، سبتمبر (ايلول) ١٩٧٧.
- لبيدنسكايا، تي. ان ، شبه الجزيرة العربية كما وصفها بي ستينين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الثاني والخمسون، السنة السادسة والعشرون، يوليو (تموز) ٢٠٠٧.